تحقيق

عبده حسين إمام

"كلُّ من باعوا أنفسهم كان المقابل غاليًا، ويستحق أن يغامر ويراهن الإنسان وتهون عليه نفسه من أجل المقابل الذي مهما علا وارتفع لا يفي بقيمة إنسان، أما أنت يا رفيق دربي فلست أدري لماذا بعت نفسك بأبخس الأثمان وألقيت نفسك قانعًا في أحضان الفاسدين والمارقين".

هوت حروفها المسنونة على أسماعه فأربكته وتبللت جفونه برذاذ دموع مهيضة فيأوي إليها بعينين دامعتين متكئًا على مقعده الخشبي في دوار وخجل مشين وعجز يسري بجسده الكهل. تعلم الأستاذة وفاء كم كلماتها قاسية حادة وناقدة نافذة ولكنها تتأكد من قبوله لنقدها وبل ربما استحسانه وهما رفقاء العمل منذ قرابة العشرين عامًا في نفس المكتب منذ شباب ولى في تخبط وتردد وهروب.

يشرع في ترتيب ملف التحقيق قبل الذهاب لإجراء تحقيق في حادثة فساد وتجاوز فج فاحت رائحته حتى زكمت الأنوف، تلك

التجاوزات التي تتم برعاية وبمباركة مدير الفرع ذاك الرجل الذى قفز إلى الإدارة فجأة بل عُنوة ورتب وشكّل جميع الأفراد والأشخاص حسب مفهومه الفاسد وأهوائه المنحرفة، ورغم حداثة سنه والتحاقه بالمؤسسة إلا إنَّه استطاع أن يستحوذ على فكر هذا الكهل الأريب الذي أفنى عمره في ترتيب المخازن وحصر الصادر والوارد والإحاطة بكل الثغرات، و لكنه ظل عقلًا خبيرًا كبيرًا ولكن بلا رؤية من أجل مقعد ثابت وراتب متواتر وعيشة آمنة رتيبة رضي وغض الطرف عن كثير من المفاسد وضاعت هيبته بين مرؤوسيه المتعاقبين على ثبوته خلف مكتبه، كتل من سكون لا يتبدد وكان يتنامى إلى أسماعه ما يطلقه بعضهم عليه في الخفاء وفي العلن أحيانًا من ألقاب بغرض التسفيه والاستخفاف مثل لقب (أبو كرتونة).

يغادر المكتب مودعًا زميلته الجالسة كهرمٍ أبيّ، والشمس تنحدر على خصلات شعرها الرمادية التي تنسدل على وجه لم تفقده الكهولة وخربشات السنين من ألقه ومرحه ويخاطبها: دعواتك يا أستاذة وفاء.

فتنظر إليه بنظرة لوم تكتنزها عيناها التي تزخر في حدقاتها أيام وحكايا، وترمقه كإنسان يستحق العتب، وكحبٍّ قديمٍ فرَّ في ليل خائف وتولى عنها في يوم زحفت فيه المشاعر وأنّت فيه القلوب.

يحاصره المحقق ببعض الأسئلة التي يتخللها تبجيل لسنّه ومعرفة بالحقيقة الكامنة وما تلوكه الألسنة عن فساد هذا الفرع ومديره المدعوم من أساطين كبار يركضون في الخفاء،

المحقق: ماذا تقول فيما هو منسوب إليك من تسهيل صرف مهمات بكميات كبيرة لا تتناسب مع حجم العمل بهذه المأمورية؟

فيرد على المحقق: كل شيء تم بتعليمات السيد مدير الفرع، وبعد الدراسة والتدقيق من السادة بالقطاع الفني.

وأخرج استمارة صرف بالأمر المباشر، تحمل توقيع المدير تعتلي توقيعه الصغير الباهت، يتفحصها المحقق الشاب في ريبة وحصافة فينهي التحقيق مخليًا مسؤوليته عن الحدث.

فيسأل المحقق في لهفة وأرق: ألست أستحق العقوبة؟

فيبتسم المحقق: نعم يا سيدي لا تستحق، فأنت خارج دائرة الصراعات وتصفية الحسابات.

بابتسامة وبنوة حانية، وكأن لسان حال المحقق يقول ما أنت إلا دُمية تعبث بها رياح الأشقياء.

يخرج بريئًا آمنًا لم تهتز مملكة انزوائه وهُدنته مع رؤوس الشياطين لكن قلبه ينبض في انقباض وتحيطه مشاعر حزن وامتهان تقتل فرحته بإخلاء سبيله وعدم إدانته في التحقيق غير المفاجئ وهو الذي يعلم أن ما حدث تجاوز وما جرى هو أمر بالباطل صاغته أياد وعقول مَرَدَة تدري كيف تصوغ الموبقات في أغلفة من البراءة والمعروف.

وانصرف آسفا على عِزٍّ لم ينله وعلى شرفٍ لم يدركه، شرف نيل العقوبة، فعندما يكون العقاب معادلًا للرفض والثورة يصبح العقاب وسامًا وشرفًا لصاحبه.